البعث

عناصر الموضوع

مفهوم البعث	٢٠٨
البعث في الاستعمال القرآني	٢٠٩
الألفاظ ذات الصلة	٢١١
منهج القرآن في تقرير مبدأ البعث	٢١٣
المنكرون للبعث بعد الموت ودوافعهم	٢٣٥
آثار الإيمان بالبعث	٢٥٠

مفهوم البعث

أولًا: المعنى اللغوي:

الباء والعين والثاء أصلٌ واحد، وهو الإثارة. ويقال بعثت الناقة إذا أثرتها. وقال ابن أحمر:

فبعثتها تقص المقاصر بعدما ... كربت حياة النار للمتنور[١].

قال الراغب: «أصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه»[٢].

والبعث ضربان:

- بشري، كبعث البعير، وبعث الإنسان في حاجة.
- وإلهي، وذلك ضربان:

أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس (أي من عدم)، وذلك يختص به الباري تعالى، ولم يقدر عليه أحد.

والثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه، كعيسى صلى الله عليه وسلم وأمثاله، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]. يعني: يوم الحشر[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يعرف البعث بعد الموت بأنه: «إحياء الله تعالى الأموات وإخراجهم من قبورهم وهم أحياء للحساب وللجزاء»[٤].

وقال ابن كثير: «هو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة»[٥].

والحاصل أن البعث: «هو أن يعيد الله تعالى الإنسان بروحه وجسده كما كان في الحياة الدنيا، وهذا كائن عندما تتعلق إرادة الرب جل وعلا بذلك فيخرج الخلق جميعهم من قبورهم، وهم حفاة عراة غرل بهم، ويساقون إلى أرض الموقف لينال كل إنسان ما يستحقه من الجزاء العادل وفق ما عمل في حياته الدنيا»[٦].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٦٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٣٢.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٣٢، التوقيف، المناوي ص٨٠.
(٤) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص٥٦٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٣٩٥.
(٦) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص٥٦٧.

البعث في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بعث) في القرآن الكريم (٦٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٠	﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٦]
الفعل المضارع	٢٨	﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨]
فعل الأمر	٥	﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة:١٢٩]
اسم مفعول	٩	﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾ [المطففين:٤]
مصدر	٥	﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان:٢٨]

وجاء البعث في الاستعمال القرآني على سبعة أوجه[٢]:

الأول: الإلهام: قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:٣١]. يعني فألهم الله غرابًا.

الثاني: الإحياء في الدنيا: قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٦]. أي: ثم أحييناكم في الدنيا.

الثالث: اليقظة من النوم: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠]. أي: من النوم.

الرابع: التسليط: قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص١٢٤-١٢٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ١١٨، ١٧٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٢٠٤-٢٠٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢/ ٢١٤-٢١٥.

[الإسراء:٥]. أي: سلطنا عليكم عبادًا لنا.

الخامس: إرسال الرسول: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]. أي: أرسل رسولًا.

السادس: النصب والتعيين: قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾ [النساء:٣٥]. أي: انصبوا حكمًا.

السابع: النشور من القبور: قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج:٧]. يعني: ينشر من في القبور.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإحياء:

الإحياء لغة:

قال ابن فارس: «الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة؛ فأما الأول فالحياة والحيوان، وهو ضد الموت والموتان، ويسمى المطر حيًا لأن به حياة الأرض»[(١)].

الإحياء اصطلاحًا:

لم يعرف أهل السنة الإحياء في مؤلفاتهم لوضوح معناه، وإنما تحدثوا عن هذا اللفظ بكلام عام يبين معناه عندهم، وقد ورد الإحياء في الشرع بمعنى نفخ الروح في الجسد، وإيجاد الحياة فيه[(٢)].

الصلة بين الإحياء والبعث:

أنهما يدلان على شيء واحد وهو إعادة الحياة للميت.

٢ النشور:

النشور لغة:

الحياة بعد الموت، ينشرهم الله إنشارًا، ونشرت الأرض تنشر نشورًا، إذا أصابها الربيع فأنبتت، فهي ناشرةٌ[(٣)].

النشور اصطلاحًا:

يطلق ويراد به معنى البعث، وهو انتشار الناس من قبورهم إلى الموقف للحساب والجزاء.

الصلة بين البعث والنشور:

أن بعث الخلق اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

والنشور اسم لظهور المبعوثين وظهور أعمالهم للخلائق، ومنه قولك نشرت اسمك،

(١) مقاييس اللغة، ٢/ ١٢٢.
(٢) الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو، ص١٤٠- ١٤١.
(٣) العين، الفراهيدي ٦/ ٢٥٢.

ونشرت فضيلة فلان، إلا أنه قيل: أنشر الله الموتى بالألف، ونشرت الفضيلة والثوب للفرق بين المعنيين»[١].

ووجه الصلة بين البعث والنشور أنهما مرحلتان متتاليتان للموتى يوم القيامة البعث يكون بإحيائهم وإخراجهم من قبورهم والبعث يكون بانتشارهم بعد خروجهم من قبورهم كالفراش المبثوث.

٣ الإخراج:

الإخراج لغة:

أصله من «خرج خروجًا: برز من مقره أو حاله، سواء كان مقره دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواء كان حاله حالة في نفسه، أو في أسبابه الخارجة[٢].

الإخراج اصطلاحًا:

«هو البعث يوم القيامة لموقف العرض والجزاء»[٣].

الصلة بين الإخراج والبعث:

أن البعث يشمل الإحياء والخروج، فالإخراج أخص من البعث.

(١) الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٨٩
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٧٨.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٣٧٥.

منهج القرآن في تقرير مبدأ البعث

سلك القرآن الكريم مسلك الاستدلال العقلي والقياس في إثبات قضية البعث بعد الموت وأنها ممكنة عقلا، وذلك من خلال النظر في المشاهدات الكونية الدالة على قدرة الله تعالى عليه، وأنه أهون من كثير مما لا ينكرون أن الله يقدر عليه، فمن ذلك ما يلي:

أولًا: الاستدلال بالنشأة الأولى:

دل القرآن الكريم على قضية البعث بقياسها على قضية مسلمة عند منكريه وهي قضية الخلق الأول، أو النشأة الأولى، فهم يقرون بأن الله هو الذي خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

فبين القرآن إنهم إن أقروا بذلك وأن الله هو الذي خلقهم بقدرته وأنشأهم من عدم، لزمهم الإقرار بقدرته كذلك على بعثهم بعد موتهم، وذلك في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩]

ذكر الواحدي: «عن أبي مالكٍ: أن أبي بن خلفٍ الجمحي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظمٍ حائلٍ ففته بين يديه، وقال: يا محمد يبعث الله هذا بعدما أرم؟ فقال: (نعم، يبعث الله هذا ويميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم)[١]، فنزلت هذه الآية»[٢].

«وقيل: إن هذا الكافر قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أرأيت إن سحقتها وأذريتها في الريح أيعيدها الله! فنزلت ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي من غير شيء فهو قادر على إعادتها في النشأة الثانية من شيء وهو عجم الذنب، ويقال عجب الذنب بالباء»[٣].

«ولا شك أن الإحياء بعد أهون من الإنشاء قبل، فمن قدر على الإنشاء كان على الإحياء أقدر وأقدر، ولا احتمال لعروض العجز فإن قدرته عز وجل ذاتية لا تقبل الزوال ولا التغير بوجه من الوجوه»[٤].

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ «فإن قدرته كما كانت لامتناع التغير فيه، والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها»[٥].

«وهذا بمجرد تصوره، يعلم به علما يقينا لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٦٠٦. وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.
(٢) أسباب النزول، ص٣٦٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٥٨.
(٤) روح المعاني، الألوسي، ١٢/ ٥٣.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٧٤.

قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور»[1].

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٠-٦٢].

قال النسفي: «﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وعلى أن ننشئكم في خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها، يعني أنا نقدر على الأمرين جميعًا على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟ ويجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل، أي على أن نبدل ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم، وننشئكم في صفات لا تعلمونها»[2].

وقال المراغي: «أي نحن قسمنا الموت بينكم، ووقتنا موت كل واحد بميقات معين لا يعدوه بحسب ما اقتضته مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة، وما نحن بعاجزين عن أن نذهبكم ونأتي بأشباهكم من الخلق، وننشئكم فيما لا تعلمون من الأطوار والأحوال التي لا تعهدونها.. ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي لقد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداية قادر على النشأة الأخرى وهي الإعادة بطريق الأولى»[3].

قال الشوكاني: «﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ وهي ابتداء الخلق من نطفةٍ، ثم من علقةٍ، ثم من مضغةٍ ولم تكونوا قبل ذلك شيئًا، وقال قتادة والضحاك: يعني خلق آدم من ترابٍ فلولا تذكرون أي: فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة وتقيسونها على النشأة الأولى»[4].

وقال الصابوني: «﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فهلا تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم كما قدر على خلقكم أول مرة؟ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧]. »[5].

وقد رد القرآن الكريم على من أنكروا البعث كذلك وسألوا سؤال استبعاد لا سؤال استفهام أيبعثون بعد موتهم وآباؤهم بعد أن صاروا عظاما ورفاتا من جديد ردا مفحما غاية في البيان والإيجاز والإعجاز والإفحام.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٩٩.
(٢) مدارك التنزيل، ٣/ ٤٢٦
(٣) تفسير المراغي، ٢٧/ ١٤٦
(٤) فتح القدير، ٥/ ١٨٩
(٥) صفوة التفاسير، ٣/ ٢٩٥

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥١].

«وقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ قالوا إنكارا منهم للبعث بعد الموت: إنا لمبعوثون بعد مصيرنا في القبور عظاما غير منحطمة، ورفاتا منحطمة، وقد بلينا فصرنا فيها ترابا، خلقا منشأ كما كنا قبل الممات جديدا، نعاد كما بدئنا، فأجابهم جل جلاله يعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم، وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاهم خلقا جديدا، على أي حال كانوا من الأحوال، عظاما أو رفاتا، أو حجارة أو حديدا، أو غير ذلك مما يعظم عندهم أن يحدث مثله خلقا أمثالهم أحياء، قل يا محمد ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾»[1].

«وتقرير الشبهة: أن الإنسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم، واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها، ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع؟ فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمرٌ ممكنٌ، ولو فرضتم أن بدنه قد صار أبعد شيءٍ من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد، فهو كقول القائل: أتطمع في وأنا ابن فلانٍ، فيقول: كن ابن السلطان أو ابن من شئت، فسأطلب منك حقي»[2].

«وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾؟ يخبر تعالى رسوله أن منكري البعث سيقولون له مستبعدين البعث: من يعيدنا؟ وعلمه الجواب فقال له: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ أي خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهو جواب مسكت فالذي خلقكم ثم أماتكم هو الذي يعيدكم كما بدأكم وهو أهون عليه»[3].

«والمعنى أنه لما قال لهم: كونوا حجارةً أو حديدًا أو شيئًا أبعد في قبول الحياة من هذين الشيئين فإن إعادة الحياة إليه ممكنةٌ، فعند ذلك قالوا: من هذا الذي يقدر على إعادة الحياة إليه، قال تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني أن القول بصحة الإعادة فرعٌ على تسليم أن خالق الحيوانات هو الله تعالى، فإذا ثبت ذلك فنقول: إن تلك الأجسام قابلةٌ للحياة والعقل، وإله العالم قادرٌ لذاته، عالمٌ لذاته فلا يبطل علمه وقدرته البتة، فالقادر على الابتداء يجب أن يبقى قادرًا على الإعادة، وهذا كلامٌ تامٌ وبرهانٌ قويٌ»[4].

(١) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٦٣.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٢٧٨.

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري، ٣/ ٢٠١، ٢٠٢.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٣٥٣.

ثانيًا: القياس العقلي:

دلل القرآن الكريم على قضية البعث بعد الموت بالقياس العقلي الجلي على قضية بدء الخلق، وبين أنه قياس بطريق الأولى، فكل من صدق بأنه تعالى ابتدأ خلق الإنسان وهو أمر فطري لم ينازع فيه المشركون، لزمه بطريق الأولى التصديق بقدرته تعالى على إعادته مرة أخرى، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

قال القرطبي: «أما بدء خلقه فبعلوقه في الرحم قبل ولادته، وأما إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث، فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلًا على ما يخفى من إعادته، استدلالًا بالشاهد على الغائب، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾»[(١)].

«والهين هو ما لا يتعب فيه الفاعل، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى، فإذا قال قائلٌ إن الرجل القوي لا يتعب من نقل شعيرة من موضعٍ وسلم السامع له ذلك، فإذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلةٍ يكون ذلك كلامًا معقولًا مبقىً على حقيقته»[(٢)].

قال القرطبي: «ووجهه أن هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لعباده، يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهون عليه من الإنشاء»[(٣)].

كذلك برهن القرآن الكريم على قضية البعث بحكمة الله وعدله اللذين يقتضيان محاسبة الناس على أعمالهم في الدنيا في دار أخرى بعد موتهم، وإلا كان وجودهم في هذه الحياة الدنيا ضربا من العبث يتنزه الله تعالى عنه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

قال الزحيلي: «﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا، أي لعبا وباطلا بلا قصد ولا حكمة لنا، بل خلقناكم للعبادة والتهذيب والتعليم وإقامة أوامر الله تعالى، وهل ظننتم أنكم لا تعودون إلينا في الدار الآخرة للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

أي: هملًا.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: تنزه وتقدس الله صاحب الملك الواسع، الثابت الذي لا

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٠
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ٩٦
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢١-٢٢.

يزول، أن يخلق شيئا عبثا، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، وهو ذو العرش العظيم الحسن البهي الذي يدبر فيه نظام الكون بحكمة ومقصد سام»[1].

«وبيان كونه عبثًا أنه لو خلق الخلق فأحسن المحسن وأساء المسيء ولم يلق كلٌ جزاءه لكان ذلك إضاعةً لحق المحسن وإغضاءً عما حصل من فساد المسيء فكان ذلك تسليطًا للعبث»[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]

«وتقريره أن إعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهي عن المفاسد يقتضي كونه تعالى راضيًا بقبائح الأفعال، وذلك لا يليق بحكمته، فإذًا لا بد من التكليف والتكليف لا يحسن ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة»[3].

ثالثًا: الاستشهاد بالدورة النباتية:

استدل القرآن الكريم على إمكان البعث بما هو مشاهد من إحياء الأرض الميتة الجرز بنزول الماء عليها فتهتز بالخضرة والحياة بعد موتها، فمن قدر على إحياء تلك الأرض بعد موتها قادر لا محالة على إحياء الموتى من البشر.

وقد تكرر هذا المثل في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧].

«يلفت الله تعالى نظر المشركين المنكرين للبعث والحساب والعقاب، إلى أنه يرسل الرياح فتثير السحاب، وتجعله يتكون في جو السماء، ثم تسوقه الرياح إلى الأرض الموات، التي لا نبات فيها، فيفرغ السحاب ما فيه من فوق هذه الأرض الميتة، فتحيا الأرض بالماء، وتهتز وتربو، ويخرج منها النبات، وكما أحيا الله تعالى الأرض الميتة، وأخرج منها النبات النضير، كذلك يحيي الله الأموات من البشر، ويخرجهم من قبورهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم»[4].

قال السعدي: «يبين تعالى أثرا من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١١٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/ ١٣٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠/ ٧٣٧
(٤) أيسر التفاسير، أسعد حومد، ٣/ ١٠٦٨.

﴿ثِقَالًا﴾ قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرى، وألحقه ريح أخرى ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك البلد الميت ﴿ٱلْمَآءَ﴾ الغزير من ذلك السحاب وسخر الله له ريحا تدره وتفرقه بإذن الله، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، بعد ما كانوا رفاتا متمزقين، وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأمرين، فمنكر البعث استبعادا له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد، وإنكار المحسوسات»[1].

وقال الزحيلي: «هذه آية اعتبار واستدلال على وجود البعث، وفهم الدليل بسيط جدا؛ فإن الله تعالى كما أنه يحيي الأرض وينبتها نباتا حسنا بالمطر فإنه قادر على إعادة الموتى أحياء يوم القيامة، كإحياء الأرض بعد موتها.. وإحياء الأرض بعد موتها بالنباتات يحدث بقدرة الله الخالق، فكذلك إعادة الحياة إلى الأجساد يكون بقدرة الله أيضا»[2].

وقد جمع بين الطريقتين السابقتين في إثبات البعث قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٥].

«﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ إقامة للحجة التي تلقم المجادلين في البعث حجرا إثر الإشارة إلى ما يؤول إليه أمرهم، واستظهر أن المراد بالناس هنا الكفرة المجادلون المنكرون للبعث، والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب أي الشك مع أنهم جازمون بعدم إمكانه إما للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وإن كانوا في غاية ما يكون من المكابرة والعناد هو الارتياب في شأنه، وإما الجزم بعدم الإمكان فخارج من دائرة الاحتمال كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفا مشكوك الوقوع، وإما للتنبيه على أن جرمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإمكان ونهاية قوتها، وإنما لم يقل وإن ارتبتم في البعث للمبالغة في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٢.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٦٧٨.

تنزيه أمره عن شائبة وقوع الريب والإشعار بأن ذلك إن وقع فمن جهتهم لا من جهته، واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافي اعتبار ضعفه وقلته لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لا قوته وكثرته»[1].

«فيا أيها البشر، إن كنتم في شك من إمكان البعث ومجيئه، فانظروا إلى بدء خلقكم، فمن قدر على البدء قدر على الإعادة، بدليل مراحل خلق الإنسان السبع.. وهذا هو الدليل الأول على قدرة الله على البعث، يعتمد على التأمل في مراحل خلق الإنسان، والدليل الثاني: هو خلق النبات المشابه لخلق الإنسان، فإذا تأمل المرء أحوال الأرض، يراها أولا ميتة يابسة لا نبات فيها ولا زرع، فإذا أنزل الله عليها المطر تحركت بالنبات، ودبت فيها الحياة، وارتفعت وانتفخت بالماء والنبات، ثم أنبتت من كل صنف من النبات والزرع ما هو جميل المنظر، طيب الرائحة، متناسق الألوان أو مختلفها، لاختلاف ألوان الثمار والزروع والطعوم والروائح، والأشكال والمنافع، كما يلاحظ كل إنسان في فصل الربيع والصيف وغيرهما»[2].

وهذا ارتقاءٌ في الاستدلال على الإحياء بعد الموت بقياس التمثيل لأنه استدلالٌ بحالةٍ مشاهدةٍ فلذلك افتتح بفعل الرؤية، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان فإن مبدأه غير مشاهدٍ فقيل في شأنه فإنا خلقناكم من ترابٍ الآية، ومحل الاستدلال من قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾، فهو مناسبٌ قوله في الاستدلال الأول فإنا خلقناكم من ترابٍ، فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت»[3].

فهذان الدليلان القاطعان، يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٦-٧]»[4].

رابعًا: الاستدلال بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت:

استدل القرآن الكريم على قضية البعث بوقائع حدثت فعلا، ووقع فيها أمر الإحياء بعد الموت في هذه الحياة الدنيا بشكل معاين، وهي وقائع عديدة ذكرها الله تعالى في كتابه ليدلنا بها على إمكان وقوع إحياء الموتى حتى في هذه الحياة الدنيا، وأن من قدر على ذلك فهو قادر لا محالة على إحياء

(١) روح المعاني، الألوسي، ٩/ ١١١.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٦٢٦-١٦٢٧ مختصرًا.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ٢٠٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٣٣-٥٣٤.

الموتى جميعا يوم القيامة، فمن هذه الوقائع:

١. قصة الرجل الذي قتل في بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ۖ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٣].

«وحكاية ذلك: أن رجلًا موسرًا قتله بنو عمه ليرثوه، وطرحوه عند باب المدينة، ثم جاءوا يطالبون بديته؛ فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة، ويضربوا القتيل ببعضها؛ فيحيا ويخبرهم بقاتله. فضربوه بذنبها، فحي وقال: قتلني فلان وفلان - يريد ابني عمه - فاقتص منهما، وحرما ميراثه»[(١)].

«روي عن ابن عباسٍ وسائر المفسرين أن رجلًا من بني إسرائيل قتل قريبًا لكي يرثه ثم رماه في مجمع الطريق ثم شكا ذلك إلى موسى عليه السلام فاجتهد موسى في تعرف القاتل، فلما لم يظهر قالوا له: سل لنا ربك حتى يبينه، فسأله فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فتعجبوا من ذلك ثم شددوا على أنفسهم بالاستفهام حالًا بعد حالٍ واستقصوا في طلب الوصف فلما تعينت لم يجدوها بذلك النعت إلا عند إنسانٍ معينٍ ولم يبعها إلا بأضعاف ثمنها، فاشتروها وذبحوها وأمرهم موسى أن يأخذوا عضوًا منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا فصار المقتول حيًا وسمى لهم قاتله وهو الذي ابتدأ بالشكاية فقتلوه قودًا»[(٢)].

وقد اختلفوا في المخاطب بقوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ «قال القفال: ظاهره يدل على أن الله تعالى قال هذا لبني إسرائيل أي: إحياء الله الموتى يكون مثل هذا الذي شاهدتم؛ لأنهم وإن كانوا مؤمنين بذلك إلا أنهم لم يؤمنوا به إلا من طريق الاستدلال، ولم يشاهدوا شيئًا منه، فإذا شاهدوه اطمأنت قلوبهم، وانتفت عنهم الشبهة، فأحيا الله القتيل عيانًا، ثم قال لهم: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ

(١) أوضح التفاسير، ابن الخطيب ١/ ١٣

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٤٣

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: كما أحياها في الدنيا يحييها في الآخرة من غير احتياج إلى مادة ومثال وآلة التي لا يخلو منها المستدل»[1].

وقال أبو جعفر الطبري: «وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ مخاطبة من الله عباده المؤمنين، واحتجاج منه على المشركين المكذبين بالبعث، وأمرهم بالاعتبار بما كان منه جل ثناؤه من إحياء قتيل بني إسرائيل بعد مماته في الدنيا، فقال لهم تعالى ذكره: أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، اعتبروا بإحيائي هذا القتيل بعد مماته، فإني كما أحييته في الدنيا، فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يوم البعث، وإنما احتج جل ذكره بذلك على مشركي العرب، وهم قوم أميون لا كتاب لهم، لأن الذين كانوا يعلمون علم ذلك من بني إسرائيل كانوا بين أظهرهم، وفيهم نزلت هذه الآيات، فأخبرهم جل ذكره بذلك، ليتعرفوا علم من قبلهم..

﴿وَيُرِيكُمْ﴾ الله أيها الكافرون المكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله من آياته، و﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: أعلامه وحججه الدالة على نبوته لتعقلوا وتفهموا أنه محق صادق، فتؤمنوا به وتتبعوه»[2].

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ٢/ ١٨١.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٣٢.

٢. قصة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الموت.

ومن الوقائع التي استدل بها القرآن على صدق وقوع البعث بعد الموت ووقعت فعلا ما حدث لألوف من بني إسرائيل ذكرهم القرآن في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣]

«يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول: ألم ينته إلى علمك قصة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت وهم ألوف، وهم أهل مدينة من مدن بني إسرائيل أصابها الله تعالى بمرض الطاعون ففروا هاربين من الموت فأماتهم الله عن آخرهم ثم أحياهم بدعوة نبيهم حزقيل عليه السلام»[3].

«وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد فخرجوا فرارًا من الموت إلى البرية، فنزلوا واديًا أفيح، فملؤا ما بين عدوتيه فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادي والآخر من أعلاه فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد فحيزوا

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٢٣١.

إلى حظائر وبني عليهم جدران وقبور وفنوا وتمزقوا وتفرقوا فلما كان بعد دهر مر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: حزقيل فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك بأن تكتسي لحمًا وعصبًا وجلدًا. فكان ذلك، وهو يشاهده ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره. فقاموا أحياء ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة»[1].

«فكما كان قادرًا على إحيائهم في الدنيا هو قادرٌ على إحياء المتوفين في الآخرة، فيجازي كلًا منهم بما عمل. ففي هذه القصة تنبيهٌ على المعاد، وأنه كائنٌ لا محالة، فيليق بكل عاقلٍ أن يعمل لمعاده بأن يحافظ على عبادة ربه، وأن يوفي حقوق عباده»[2].

«إن الله لذو فضل على الناس فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة»[3].

٣. قصة صاحب القرية.

ومن الوقائع التي تؤكد إمكان البعث بعد الموت قصة صاحب القرية.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

اختلف المفسرون في صاحب القصة الذي مر على القرية، هل كان نبيا عبدا صالحا أو كان كافرا شاكا في البعث، كما اختلفوا في اسمه، «واختلفوا في القرية المذكورة في الآية، لكن القرآن ضرب صفحا عن تعيين اسم الشخص واسم القرية كعادته في مثل هذه القصص التي يكون المقصد القرآني فيها هو إظهار الحكمة من ذكرها وما تشتمل عليه من المواعظ والآيات والعبر، ولا تخص شخوصها وزمانها ومكانها، والذي يعنينا هنا هو دلالة هذه القصة على قدرة الله على البعث، وإيقاعه فعلا أمام من استبعده

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٦١.
(٢) البحر المحيط، ابن حيان، ٢/ ٥٥٩، ٥٦٠.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٤١٣

ليكون ذلك دليلا له ولكل من سمع القصة على إثبات قدرة الله على إحياء الموتى.

وتفسيرها كما قال ابن كثير: «﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: ليس فيها أحد من قولهم: خوت الدار تخوي خواءً وخويا، وقوله: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكرا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾، قال: وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه؟

فلما استقل سويا قال الله له -أي بواسطة الملك-: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله في آخر نهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وذلك: أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما فقده لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال ولا التين حمض ولا أنتن ولا العنب تعفن ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أي: كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: دليلا على المعاد»[1].

«فأجيب: بل لبثت مائة عام، فانظر لترى دلائل قدرتنا إلى طعامك وشرابك طوال هذه المدة، لم يتغير ولم يفسد، مع أن العادة جرت بفساد مثله بمضي مدة قليلة، وانظر أيضا لترى الدليل على قدرتنا إلى حمارك كيف نخرت عظامه وتقطعت أوصاله، لتتبين تطاول مرور الزمان عليه وعليك وأنت راقد أو نائم فعلنا بك ما فعلنا لتعاين ما استبعدته، ولتتيقن ما تعجبت منه، ولنجعلك دليلا على المعاد، وآية دالة على تمام قدرتنا على البعث يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

فقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ دليل على البعث بعد الموت»[2].

٤. قصة إبراهيم عليه السلام مع الطير.

كما استدل القرآن على وقوع البعث بعد الموت بما وقع لسيدنا إبراهيم عليه السلام حين سأل الله أن يريه إحياء الموتى عيانا،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٨٨.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٣/ ٣٣.

فاستجاب الله له وأجرى له الأمر على يديه بإذنه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقد تكلم بعض المفسرين في سبب سؤال إبراهيم لربه أن يريه كيفية إحياء الموتى وهل كان شكا منه في البعث أو كان طلبا للترقي في درجات اليقين؟

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى الثاني واستبعاد الأول لكونه لا يليق بمقام النبوة فضلا عن الخلة.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «وقد فهم بعض الناس من هذا السؤال أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان قلقًا مضطربًا في اعتقاده بالبعث وذلك شكٌّ فيه، وما أبلد أذهانهم وأبعد أفهامهم عن إصابة المرمى، وقد ورد في حديث الصحيحين نحن أولى بالشك من إبراهيم أي أننا نقطع بعدم شكه كما نقطع بعدم شكنا أو أشد قطعًا، نعم ليس في الكلام ما يشعر، بالشك، فإنه ما من أحدٍ إلا وهو يؤمن بأمورٍ كثيرةٍ إيمانًا يقينيًا وهو لا يعرف كيفيتها ويود لو يعرفها»[1].

قال القرطبي: «ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفرٌ، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث.

وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيلٌ فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقال اللعين: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

وإذا لم يكن له عليهم سلطنةٌ فكيف يشككهم، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقوله:» أرني كيف» طلب مشاهدة الكيفية»[2].

وقال ابن عاشور: «فإن إبراهيم لفرط محبته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس»[3].

وما وقع لخليل الله إبراهيم عليه السلام من إجابة الله دليل واقعي على البعث بعد الموت، قال السعدي: «وهذا فيه أيضا أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي

(١) تفسير المنار، ٣/ ٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٢٩٩.

(٣) التحرير والتنوير، ٣/ ٣٨.

الموتى، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عيانا ليحصل له مرتبة عين اليقين.

فلهذا قال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وذلك أنه بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نيله أولو العرفان، فقال له ربه ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يديك. ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد»[1].

«فأخذ هذه الطير حسب ما أمر وذكاها، ثم قطعها قطعًا صغارًا، وخلط لحوم البعض إلى لحوم البعض مع الدم والريش حتى يكون أعجب، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءًا على كل جبلٍ، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء وأمسك رءوس الطير في يده، ثم قال: تعالين بإذن الله، فتطايرت تلك الأجزاء وطار الدم إلى الدم والريش إلى الريش حتى التأمت مثل ما كانت أولًا وبقيت بلا رءوسٍ، ثم كرر النداء فجاءته سعيًا، أي عدوًا على أرجلهن. ولا يقال للطائر: (سعى) إذا طار إلا على التمثيل، قاله النحاس. وكان إبراهيم إذا أشار إلى واحدٍ منها بغير رأسه تباعد الطائر، وإذا أشار إليه برأسه قرب حتى لقي كل طائرٍ رأسه، وطارت بإذن الله. وقال الزجاج: المعنى ثم اجعل على كل جبلٍ من كل واحدٍ جزءًا»[2].

وقال الألوسي: «وفي الآية دليل لمن ذهب إلى أن إحياء الموتى يوم القيامة بجمع الأجزاء المتفرقة وإرسال الروح إليها بعد تركيبها وليس هو من باب إعادة المعدوم الصرف لأنه سبحانه بين الكيفية بالتفريق ثم الجمع وإعادة الروح ولم يعدم هناك سوى الجزء الصوري والهيئة التركيبية دون الأجزاء المادية»[3].

٥. ما أجراه الله تعالى على يد المسيح عليه السلام.

ومن تلك الوقائع التي حدث فيها إحياء الموتى ما أجراه الله تعالى على يد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة له، وقد حكى القرآن الكريم ذلك.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١١٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٣٠٠، ٣٠١.

(٣) روح المعاني، ٢/ ٣٠.

﴿ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

«وإحياء الموتى معجزةٌ للمسيح أيضًا، كنفخ الروح في الطير المصور من الطين، فكان إذا أحيا ميتًا كلمه ثم رجع ميتًا، وورد في الأناجيل أنه أحيا بتتًا كانت ماتت فأحياها عقب موتها. ووقع في إنجيل متى في الإصحاح السابع عشر أن عيسى صعد الجبل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا أخوه وأظهر لهم موسى وإيلياء يتكلمان معهم، وكل ذلك بإذن الله له أن يفعل ذلك»[١].

«قال الكلبي: كان عليه الصلاة والسلام يحيي الموتى بيا حي يا قيوم أحيا عازر وكان صديقًا له فعاش وولد له، ومر على ابن عجوز ميت فدعا الله تعالى فنزل عن سريره حيًا، ورجع إلى أهله وبقي وولد له، وبنت العاشر أحياها وولدت بعد ذلك، فقالوا إنك تحيي من كان قريب العهد من الموت فلعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة، فأحي لنا سام بن نوح، فقال: دلوني على قبره، ففعلوا فقام على قبره، فدعا الله عز وجل، فقام من قبره وقد شاب رأسه، فقال عليه السلام: كيف شبت ولم يكن في زمانكم شيبٌ؟ قال: يا روح الله، لما دعوتني سمعت صوتًا يقول أجب روح الله، فظننت أن الساعة قد قامت، فمن هول ذلك شبت، فسأله عن النزع، قال: يا روح الله، إن مرارته لم تذهب من حنجرتي، وكان بينه وبين موته أكثر من أربعة آلاف سنةٍ، وقال للقوم: صدقوه فإنه نبي الله، فآمن به بعضهم وكذبه آخرون فقالوا هذا سحرٌ»[٢].

«وروي في إحيائه الموتى أنه كان يضرب بعصاه الميت أو القبر أو الجمجمة، فيحيي الإنسان ويكلمه، وروي أنه أحيا سام بن نوح عليه السلام، وروي أن الذي كان يحييه كانت تدوم حياته، وروي أنه كان يعود لموته سريعا، وفي قصص الإحياء أحاديث كثيرة لا يوقف على صحتها، وإحياء الموتى هي آيته المعجزة المعرضة للتحدي، وهي بالمعنى متحدى بها وإن كان لم ينص على التحدي بها، وآيات عيسى عليه السلام إنما تجري فيما يعارض الطب لأن علم الطب كان شرف الناس في ذلك الزمان وشغلهم وحينئذ أثيرت فيه العجائب، فلما جاء عيسى عليه السلام بغرائب لا تقتضيها الأمزجة وأصول الطب، وذلك إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص علمت الأطباء أن هذه القوة من عند الله، وهذا كأمر السحرة مع موسى، والفصحاء مع محمد عليه السلام»[٣].

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٥٢.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٣٩.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٤٤٠.

٦. قصة أصحاب الكهف.

ومن الوقائع التي تشهد على إمكان البعث بعد الموت قصة أولئك الفتية الذين آووا إلى الكهف وكان من أمرهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢﴾ [الكهف: ٩ - ١٢].

قال ابن كثير: «هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف والرقيم على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ليس أمرهم عجيبا في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف والرقيم كما قال ابن جريج عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك»[(١)].

وقال الطبري: «وأما الكهف، فإنه كهف الجبل الذي أوى إليه القوم الذين قص الله شأنهم في هذه السورة، وأما الرقيم، فإن أهل التأويل اختلفوا في المعني به، فقال بعضهم: هو اسم قرية، أو واد على اختلاف بينهم في ذلك»[(٢)].

«ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ أي: الشباب، ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي تثبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشد، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ أي أنمناهم ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ وهي ثلاث مائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم وليكون

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ١٣٨.
(٢) جامع البيان، ١٧/ ٦٠٢.

آية بينة، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ أي: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾[الكهف:١٩].

وفي العلم بمقدار لبثهم، ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم»[(١)].

وقال القرطبي: «﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ عبارةٌ عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم، وهذه من فصيحات القرآن التي أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله، قال الزجاج: أي منعناهم عن أن يسمعوا، لأن النائم إذا سمع انتبه، وقال ابن عباسٍ: ضربنا على آذانهم بالنوم، أي سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها، وقيل: المعنى» فضربنا على آذانهم» أي فاستجبنا دعاءهم، وصرفنا عنهم شر قومهم، وأنمناهم، والمعنى كله متقاربٌ»[(٢)].

وقد ذكر ابن الجوزي سبب بعثهم فقال: «فأما سبب بعث أصحاب الكهف من نومهم، فقال عكرمة: جاءت أمةٌ مسلمةٌ، وكان ملكهم مسلمًا، فاختلفوا في الروح والجسد، فقال قائل: يبعث الروح والجسد. وقال قائل: يبعث الروح وحده، والجسد تأكله الأرض فلا يكون شيئًا، فشق اختلافهم على الملك، فانطلق فلبس المسوح، وقعد على الرماد، ودعا الله أن يبعث لهم آية تبين لهم، فبعث الله أصحاب الكهف»[(٣)].

ويستفاد من ذلك أن الله ضرب على آذان هؤلاء الفتية في كهفهم حتى لا يفزعهم شيء ولا يوقظهم من سباتهم صوت إلى ما شاء الله، ثم بعثهم سبحانه بقدرته أي أيقظهم من نومهم لحكم عظيمة منها أن يعرف الناس قصتهم فيدركوا قدرته تعالى على البعث وليكون لهم في ذلك آية عليه، وأن من قدر على بعثهم بعد كل هذه السنين من نومهم مع حفظ أجسادهم من التلف والفساد قادر على أن يحييهم بعد موتهم وتحلل أجسادهم، فالنوم هو صورة صغرى للموت، إذ يتوفى الله فيه الأنفس كما في الموت، وقد صرح القرآن بذلك، وسيأتي تفصيله.

وكل هذه براهين واقعية وأدلة مشاهدة حسية على إمكان البعث بعد الموت ووقوعه بقدرة الله عز وجل على يد من شاء من عباده إظهارا لقدرته سبحانه، ودليلا على وقوع البعث يوم القيامة.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٧١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٦٣
(٣) زاد المسير، ٣/ ٦٧.

خامسًا: الاستدلال باليقظة بعد النوم:

من أعظم وأظهر الأدلة الحسية المشاهدة على إمكان البعث بعد الموت، تلك الحقيقة التي تقع لكل إنسان مرة على الأقل كل يوم وهي النوم واليقظة بعده، فالنوم ما هو إلا صورة مصغرة وحالة مؤقتة من الموت، ولهذا قالوا النوم موت أصغر، وقد بين الله في كتابه أن يقظة الإنسان بعد نومه وما يحدث في هذا النوم من تعطل الحواس جميعا بحيث يصبح النائم في حالة تشبه الميت في بعض الأمور دليل على بعثه بعد موته الموتة الكبرى، وسمى النوم وفاة كما سمى الاستيقاظ منه بعثا، وقد جاء هذا الاستدلال في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى، من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٠].

قال أبو حيان في معنى الآية: «ذكر شيئًا محسوسًا قاهرًا للأنام وهو التوفي بالليل والبعث بالنهار وكلاهما ليس للإنسان فيه قدرةٌ، بل هو أمرٌ يوقعه الله تعالى بالإنسان والتوفي عبارةٌ في العرف عن الموت وهنا المعنى به النوم على سبيل المجاز للعلاقة التي بينه وبين الموت وهي زوال إحساسه ومعرفته وفكره، ولما كان التوفي المراد به النوم سببًا للراحة أسنده تعالى إليه»[1].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «وأطلق التوفي على الموت؛ لأن الأرواح تقبض وتؤخذ أخذًا تامًا حتى لا يبقى لها تصرفٌ في الأبدان، وأطلق على النوم في هذه الآية وفي آية الزمر التي نذكرها قريبًا، فقال العلماء: إنه إطلاقٌ مجازيٌ مبنيٌ على تشبيه النوم بالموت لما بينهما من المشاركة في زوال إحساس الحواس والتمييز، وإنما جعلوه استعارةً عن النوم بناءً على جعله حقيقةً في الموت، وهو كذلك في العرف العام لا في أصل اللغة؛ يقولون توفي فلانٌ - بالبناء للمفعول - بمعنى مات، وتوفاه الله بمعنى أماته، وما أعلم أن العرب استعملت التوفي في الموت، وإنما هو استعمالٌ إسلاميٌ مبنيٌ على الموت، يحصل بقبض الأنفس التي تحيا بها الناس»[2].

وقال ابن الجوزي: «﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ يريد به النوم، لأنه يقبض الأرواح عن التصرف، كما يقبض بالموت، وقال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم. و﴿جَرَحْتُم﴾: بمعنى كسبتم، ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ أي: يوقظكم فيه، أي: في النهار، ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لتبلغوا الأجل المسمى لانقطاع حياتكم،

(١) البحر المحيط ٤/ ٥٣٧.
(٢) تفسير المنار ٧/ ٣٩٨، ٣٩٩.

فدل باليقظة بعد النوم على البعث بعد الموت»[1].

وقال الرازي: «بين كمال قدرته بهذه الآية وهو كونه قادرًا على نقل الذوات من الموت إلى الحياة ومن النوم إلى اليقظة واستقلاله بحفظها في جميع الأحوال وتدبيرها على أحسن الوجوه حالة النوم واليقظة»[2].

«﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ثم إليه وحده يكون رجوعكم إذا انتهت آجالكم ومتم، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إذ يبعثكم من مراقد الموت كما كان يبعثكم من مضاجع النوم؛ لأنه عالمٌ بتلك الأعمال كلها فيذكركم بها، ويحاسبكم عليها، ويجزيكم بها، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًا فشرٌ، وفيه تنبيهٌ على أن القادر على البعث من توفي النوم قادرٌ على البعث من توفي الموت»[3].

وكذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

قال ابن كثير: «قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦٠-٦١].

فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى»[4].

وقال القرطبي: «وقال ابن زيد: النوم وفاةٌ والموت وفاةٌ.. وقال عمر: النوم أخو الموت»[5].

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث جابر بن عبد الله قيل: يا رسول الله أينام أهل الجنة؟ قال: **(النوم أخو الموت و لا ينام أهل الجنة)**[6].

قال ابن العربي: «خلق الله للعبد النوم، ليعلم به كيفية الانتقال من حال إلى حال، وصفة الخروج من دار إلى دار، فإنه موت

(١) زاد المسير ٢/ ٣٨.
(٢) مفاتيح الغيب ١٣/ ١٢.
(٣) تفسير المنار، ٧/ ٤٠٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١٠١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٢٦١.
(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم ٩١٩، والبيهقي في شعب الإيمان، باب تعديد نعم الله عز وجل وما يجب من شكرها، فصل في النوم الذي هو نعمة من نعم الله في دار الدنيا وما جاء في آدابه، رقم ٤٤١٦.
وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ٣/ ١٦١، رقم ١٠٨٧: صحيح من بعض طرقه عن جابر.

أصغر، وقد يقال بنظر آخر أنه يقظةٌ صغرى، فإن نظرنا إليه من حيث عدم الحركة والحس والتصرف بالأفعال معه، قلنا هو موت لعدم ذلك كله به، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وإن نظرنا إليه من حيث إنه انقطاع عن عالم التصرف الأدنى مع الآدميين والإكباب على الدنيا ومعانيها، وأنه إقبال على الملائكة المقربين، وتفريغ القلب لإدراك الحقائق بطريق الأمثال، واطلاع على ما يكون غدًا، رأينا أنه حياة صحيحة، ويقظة محققة بدلًا عن موت مفقد، ونوم مفسد»[(١)].

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يقبض الأرواح حين موت أجسادها ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾ أي: ويتوفى التي لم تمت في منامها. فيمسك أي: عن الجسد والنفس ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ إلى الجسد إلى أجلٍ مسمّى وهو انقضاء العمر ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾ في أمر البعث»[(٢)].

وقال الطبري: «وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في قبض الله نفس النائم والميت وإرساله بعد نفس هذا ترجع إلى جسمها، وحبسه لغيرها عن جسمها لعبرة وعظة لمن تفكر وتدبر، وبيانا له أن الله يحيي من يشاء من خلقه إذا شاء، ويميت من شاء إذا شاء»[(٣)].

«وقال مقاتل: لعلامات لقوم يتفكرون في أمر البعث، يعني أن توفي نفسٍ النائم وإرسالها بعد التوفي دليلٌ على البعث»[(٤)].

تأكيد مبدأ البعث بالقسم الرباني:

يأتي القسم لتأكيد الخبر لمنكريه، وقد أمر الصادق صلى الله عليه وسلم أن يقسم على قضية البعث تأكيدا لها في وجه من كذبوه وأنكروها، وهو الذي لم يجربوا عليه كذبا قط باعترافهم، وقسمه عليها رغم أنها من الغيب، حيث لم يعاين أمر البعث لأن إخبار الله له به أشد يقينا في قلبه مما يشاهده بعينه.

قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

«يخبر تعالى عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه، أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإنه وإن كان عسيرًا

(١) قانون التأويل، ص٤٦٩.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٠.
(٣) جامع البيان، ٢١/ ٢٩٩.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٥٢٠.

بل متعذرًا بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم، لو اجتمعت على إحياء ميت واحد، ما قدروا على ذلك»[1].

«والمراد بالذين كفروا هنا المشركون من أهل مكة ومن على دينهم، واجتلاب حرف لن لتأكيد النفي فكانوا موقنين بانتفاء البعث، ولذلك جيء إبطال زعمهم مؤكدًا بالقسم لينقض نفيهم بأشد منه، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يبلغهم عن الله أن البعث واقعٌ وخاطبهم بذلك تسجيلًا عليهم أن لا يقولوا ما بلغناه ذلك، وجملة ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ معترضةٌ بين جملة ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وجملة ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وحرف بلى حرف جوابٍ للإبطال خاصٌ بجواب الكلام المنفي لإبطاله»[2].

قال الرازي: «﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما بعد أن وهو البعث وقيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ يحتمل أن يكون تعليمًا للرسول صلى الله عليه وسلم، أي يعلمه القسم تأكيدًا لما كان يخبر عن البعث وكذلك جميع القسم في القرآن»[3].

«أي زعموا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم ﴿قُلْ﴾ ردا عليهم وإظهارا لبطلان زعمهم بإثبات ما نفوه بلى تبعثون، وأكد ذلك بالجملة القسمية فهي داخلة في حيز الأمر، وكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي لتحاسبن وتجزون بأعمالكم، وزيد ذلك لبيان تحقق أمر آخر متفرع على البعث منوط به ففيه أيضا تأكيد له ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من البعث والجزاء ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لتحقق القدرة التامة وقبول المادة»[4].

«وجواب القسم لتبعثن، أي: لتخرجن من قبوركم لتنبؤن بما عملتم أي: لتخبرن بذلك إقامةً للحجة عليكم، ثم تجزون به وذلك البعث والجزاء على الله يسيرٌ إذ الإعادة أيسر من الابتداء»[5].

ومثله قوله تعالى تأكيدا لأمر البعث بالقسم ردا على قولهم بإنكارها: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ [سبأ: ٣].

«﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبةً لا أنفسهم أو معاصريهم فقط كما أرادوا بنفي إتيانها نفي وجودها بالكلية لا عدم حضورها مع تحققها في نفس الأمر، وإنما عبروا عنه بذلك لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها، ولأن وجود الأمور الزمانية المستقبلة لا سيما

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨/ ٢٧١.
(٣) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٥٥٣.
(٤) روح المعاني، ١٤/ ٣١٧، ٣١٨.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٨٢

أجزاء الزمان لا يكون إلا بالإتيان والحضور، وقيل هو استبطاءٌ لإتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد، ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم وإثباتٌ لما نفوه على معنى ليس الأمر إلا إتيانها، وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تأكيدٌ له على أتم الوجوه وأكملها، وقرئ (ليأتينكم) على تأويل الساعة باليوم أو الوقت، وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ الخ إمداد للتأكيد وتسديدٌ له إثر تسديدٍ وكسر لسورة نكيرهم واستبعادهم، فإن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به على الإطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما أن ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر، ولا ريب في أن المستشهد به كلما كان أجل وأعلا كانت الشهادة آكد وأقوى، والمستشهد عليه أحق بالثبوت وأولى، لا سيما إذا خص بالذكر من النعوت ماله تعلقٌ خاصٌ بالمقسم عليه كما نحن فيه، فإن وصفه بعلم الغيب الذي أشهر أفراده وأدخلها في الخفاء هو المقسم عليه تنبيه لهم على علة الحكم، وكونه مما لا يحوم حوله شائبة ريبٍ ما، وفائدة الأمر بهذه المرتبة من اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذرٌ ما أصلًا، فإنهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب فضلًا عن اليمين الفاجرة، وإنما لم يصدقوه مكابرة»[1].

ومن القسم على وقوع البعث قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة: ١ - ٤].

«وصيغة لا أقسم صيغة قسمٍ، أدخل حرف النفي على فعل أقسم لقصد المبالغة في تحقيق حرمة المقسم به بحيث يوهم للسامع أن المتكلم يهم أن يقسم به ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول: لا أقسم به، أي ولا أقسم بأعز منه عندي، وذلك كنايةٌ عن تأكيد القسم»[2].

«قوله عز وجل: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال الحسن: أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية. وقال قتادة: حكمها حكم الأولى، وفي «النفس اللوامة» ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها المذمومة، قاله ابن عباس. فعلى هذا: هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم.

والثاني: أنها النفس المؤمنة، قاله الحسن. قال: لا ترى المؤمن إلا يلوم نفسه على كل حال.

والثالث: أنها جميع النفوس. قال الفراء: ليس من نفس برةٍ ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيرا قالت: هلا زدت. وإن كانت عملت سوءا قالت: ليتني

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٢١

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٣٨.

لم أفعل»[1].

والأظهر هو القول الثاني، لأن الله تعالى أقسم بها، والقسم من الله تعظيم لشأن المقسم به وتنبيه على مكانته، وهذا يليق بالنفس المؤمنة بخلاف النفس الفاجرة أو المذمومة، والله أعلم.

«وجواب القسم ما دل عليه قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، وهو: لتبعثن. انتهى، وهو تقدير النحاس. وقول من قال جواب القسم هو: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾. وما روي عن الحسن أن الجواب: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾، وما قيل أن لا في القسمين لنفيهما، أي لا أقسم على شيء، وأن التقدير: أسألك أيحسب الإنسان؟ أقوالٌ لا تصلح أن يرد بها، بل تطرح ولا يسود بها الورق، ولولا أنهم سردوها في الكتب لم أنبه عليها، والإنسان هنا الكافر المكذب بالبعث»[2].

«وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تقرير وتوبيخ، والإنسان اسم جنس وهذه أقوال كانت لكفار قريش فعليها هو الرد،.. وقال القتبي: ﴿نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ معناه نتقنها سوية، والبنان: الأصابع، فكأن الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل لهم إنما تجمع ويسوى أكثرها تفرقا وأدقها أجزاء وهي عظام الأنامل ومفاصلها، وهذا كله عند البعث، وقال ابن عباس وجمهور المفسرين: ﴿نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ معناه نجعلها في حياته هذه بضعة أو عظما واحدا كخف البعير لا تفاريق فيه، فكأن المعنى قادرين في الدنيا على أن نجعلها دون تفرق، فتقل منفعته بيده، فكأن التقدير بلى نحن أهل أن نجمعها قادرين على إزالة منفعة بيده، ففي هذا توعد ما»[3].

(١) زاد المسير ٤/ ٣٦٨

(٢) البحر المحيط ١٠/ ٣٤٤.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٠٢.

المنكرون للبعث بعد الموت ودوافعهم

رغم وضوح الأدلة والآيات لكل ذي قلب وعينين على إمكان البعث بعد الموت وأن الله قادر عليه، إلا أن فريقا من الناس أنكروا البعث بعد الموت وكذبوا به وراحوا يلقون الشبه على استحالته، وهم في ذلك أصناف متعددة.

أولًا: أصناف المنكرين للبعث بعد الموت:

المنكرون للبعث بعد الموت يصنفون بحسب إنكارهم للمبدأ ولوجود الخالق أربعة أصناف:

الصنف الأول: أنكروا المبدأ والمعاد، وزعموا أن الأكوان تتصرف بطبيعتها فتوجد وتعدم بأنفسها، ليس لها ربٌ يتصرف فيها، إنما هي أرحامٌ تدفع وأرضٌ تبلع، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة الدهرية والطبائعية.

والصنف الثاني: من الدهرية طائفةٌ يقال لهم الدورية، وهم منكرون للخالق أيضًا، ويعتقدون أن في كل ستةٍ وثلاثين ألف سنةٍ يعود كل شيءٍ إلي ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مراتٍ لا تتناهى، فكابروا في المعقول، وكذبوا المنقول، قبحهم الله تعالى.

وهاتان الطائفتان يعمهم قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ولهذا عن السلف الصالح فيها تفسيران الأول معنى قول منكري البعث: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموت الآباء ويحيا الأبناء هكذا أبدًا، وهو قول الطائفة الأولى، والمعنى الثاني أنهم عنوا كونهم يموتون ويحيون هم أنفسهم، ويتكرر ذلك منهم أبدًا ولا حساب ولا جزاء، بل ولا موجد ولا معدم، ولا محاسب ولا مجازي، وهذا قول الدورية.

الصنف الثالث: الدهرية من مشركي العرب ومن وافقهم، وهم مقرون بالبداءة، وأن الله تعالى ربهم وخالقهم، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ومع هذا قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الدخان: ٣٥].

فأقروا بالبداءة والمبدئ، وأنكروا البعث والمعاد، وهم المذكورون في حديث أبي هريرة رضي الله عنه **(وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته)**[1].

والصنف الرابع: ملاحدة الجهمية ومن وافقهم، أقروا بمعادٍ ليس على ما في القرآن ولا فيما أخبرت به الرسل عن الله عز وجل، بل زعموا أن هذا العالم يعدم عدمًا محضًا، وليس المعاد هو بل عالمٌ آخر غيره، فحينئذٍ تكون الأرض التي تحدث أخبارها وتخبر

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٩١١٤.
وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

بما عمل عليها من خيرٍ وشرٍ ليست هي هذه، وتكون الأجساد التي تعذب وتجازى وتشهد على من عمل بها المعاصي ليست هي التي أعيدت بل هي غيرها، والأبدان التي تنعم في الجنة وتثاب ليست هي التي عملت الطاعة، ولا أنها تحولت من حالٍ إلى حالٍ، بل هي غيرها تبتدأ ابتداءً محضًا، فأنكروا معاد الأبدان، وزعموا أن المعاد بداءةٌ أخرى[1].

أما من حيث الاختلاف في إنكار المعاد الجسماني أو الروحاني أو هما معا فالمنكرون للبعث المخالفون لما عليه الكتاب والسنة وإجماع أهل الملل على المعاد الروحاني والجسماني معا أصناف ثلاثة:

١. المنكرون للمعاد الروحاني فقط.

وهؤلاء يقولون بمادية الروح وأنها حالة في الجسم سارية فيه سريان الماء في العود الأخضر أو النار في الفحم، والإنسان عندهم روح وبدن وكلاهما جسم مادى.

وهؤلاء خلافنا معهم بالأساس في حقيقة الروح، وأنها ليست مادية، بل هي خلق من خلق الله ليست بجسم ولكنها تحل في الأجسام كما يشاء الله.

أو نقول إن كانت تسميتهم للروح مادة تسمية اصطلاحية فلا مشاحة في الاصطلاح، وحينئذ لا يكونون منكرين لبعث الأرواح والأجسام.

٢. المنكرون للمعاد الجسماني فقط.

وهؤلاء من يطلقون عليهم الفلاسفة الإلهيين، وينتسبون إلى الإسلام رغم مخالفتهم لكثير من عقائده الأساسية ولما هو معلوم من الدين بالضرورة كالفارابي وابن سينا ومن سار على دربهم من المتكلمين والمشتغلين بالفلسفة، ويتلخص مذهبهم في قضية البعث أو المعاد أن الأجساد لا تحشر ولا تبعث، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية، ولعلهم فى مقالتهم هذه متأثرين بأساتذتهم فى هذا الاتجاه، الذين يمثلهم في الفكر اليوناني سقراط وأفلاطون وأرسطو، فهؤلاء جميعًا يرون أن النفس لها وجود متقدم على البدن، وأن البعث هو عودة الروح إلى عالمها بعد مفارقة البدن الذى هو من جملة المركبات التي مصيرها الانحلال والفناء.

وهذا شأن المنافقين الذين يظهرون الإسلام وتعظيم الرسل والانقياد للشرائع في الظاهر من المتفلسفة والمتصوفة ومن لف لفهم، وهم في الباطن كفار منكرون لما هو معلوم من الدين بالضرورة، يخلطون

(١) معارج القبول، حافظ حكمي، ٢/ ٧٧٦.

تعاليم الرسل بقول الصابئة والمجوس وغيرهم من المشركين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرفون الكلام عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثالٌ ضربت لنفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام، وطائفة ممن ضاهوهم: من كاتب، أو متطبب، أو متكلم، أو متصوف، كأصحاب رسائل «إخوان الصفا» وغيرهم، أو منافق، وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان»[1].

٣. المنكرون للمعاد الجسماني والروحاني معا.

وهؤلاء هم من يسمون الفلاسفة الطبيعيين، وقد فسر هؤلاء الفلاسفة الإنسان تفسيرًا ماديا بحتًا وينكرون كل ما وراء الحس والتجربة المادية، لذا فإنهم يرفضون أن تكون الطبيعة الإنسانية مشتملة على نفس تغاير في طبيعتها المادية المحسوسة وصفاتها، ومن هنا أجمع القدماء منهم والمحدثون على إنكار عقيدة البعث بعد الموت، لأن الموت عندهم عدم محض، وليس هناك يوم آخر يعاد فيه الإنسان فيحاسب على ما قدمت يداه، وما الأمر -في نظر هؤلاء- إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر، وهؤلاء من يسمون الدهرية والطبائعية والطبيعيين، يقول رب العزة حاكيًا مذهبهم ومبكتا لهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

ويوجد لهم أشباه في العصر الحديث من الملحدين كالشيوعيين وسائر أصحاب المذاهب المادية الباطلة، والعقلانية الفاسدة، الذين لا يتبعون الرسل ولا يدينون بالأديان والشرائع، وإنما يتبعون أهواءهم ويستندون إلى العقل ويرفضون الوحي الإلهي، وأولئك كفار خارجون عن الملل كلها، متفق على كفرهم بين جميع أصحاب الشرائع والديانات.

ثانيًا: أسباب إنكار البعث:

١. الاستدلال العقلي الخاطئ.

من أسباب إنكار البعث عند هؤلاء المنكرين للبعث هو اعتمادهم على بعض الشبه العقلية، والاستدلال العقلي الخاطئ.

وأعظم شبهة لدى المنكرين للبعث هي استبعاد إعادة الأجسام بعد تمزقها، وتفتتها، ثم اختلاطها بأجزاء الأرض، إذ

(١) مجموع الفتاوى، ٤/ ٣١٤.

تصبح متصورة بصورة التراب، فكيف يمكن إعادتها إلى حالتها التي كانت عليها من قبل؟!

هذا أمر غريب على عقول المنكرين، وعجيب في نفس الوقت عندهم، والحديث عنه خرافة، والمتحدث به، إما مفتر على الله الكذب، وإما مجنون سلب عقله، فخيل له جنونه ذلك الحديث وأجراه على لسانه.

وقد عبر شاعرهم عن ذلك الإنكار، مبينًا أن الحديث عنه خرافة بقوله[1]:

حياة ثم موت ثم نشر
حديث خرافة يا أم عمرو

وقال آخر[2]:

أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا
وكيف حياة أصداء وهام

ويقول الحق جل شأنه، مخبرا عن ذلك الجحود العنيد والإنكار الشديد، ونسبتهم إلى قائله الجنون، أو الكذب والافتراء على الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝٨﴾ [سبأ: ٧ - ٨].

«أي هل نرشدكم إلى رجلٍ ينبئكم، أي يقول لكم: إنكم تبعثون بعد البلى في القبور، وهذا صادرٌ عن فرط إنكارهم»[3].

«يعنون بذلك الرجل، رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار - بزعمهم - فرجة يتفرجون عليه، وأعجوبة يسخرون منه، وأنه كيف يقول إنكم مبعوثون بعدما مزقكم البلى، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟!»[4].

«ثم إنه تعالى أجابهم مرةً أخرى وقال: بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب في مقابلة قولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وقوله: ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ وكلاهما مناسبٌ. أما العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق مؤذيةٌ، لأنه شهادةٌ عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه إلى الكذب. وأما الجنون فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه في الإيذاء، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب، ولكن ينسبه إلى عدم الهداية فبين أنهم هم الضالون، ثم وصف ضلالهم بالبعد، لأن من يسمي المهتدي ضالًا يكون هو الضال، فمن يسمي الهادي ضالًا يكون أضل، والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادي كل مهتد»[5].

(١) نسبه الثعالبي في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص١٣٠ إلى ابن الزِبَعْرَى.
(٢) نسبه الأبشيهي في المستطرف في كل نفس مستطرف ص٤٦٧ إلى الأسود بن يعفر.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٦٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٧٥.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٩٥.

«ثم ذكرهم بتلك الأدلة فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: ٨ - ٩].

أي: دلالة واضحة على قدرة الله، فكيف يستبعد عليه إعادة تلك الأجسام الضعيفة بعد تفرقها، وهو القادر على خلق هذه الآيات العظيمة، من السماء والأرض، ذلك هو دليل البعث؛ لأنه يدل على كمال القدرة، ومن المقدور عليه إعادة خلق الإنسان وإيجاده مرة أخرى.

وقد قرن هذا الدليل بالتهديد حيث قال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

ثم بين تعالى أن المنتفع بتلك الآيات كل من يرجع إلى ربه، ويتوب إليه، لا من يتمادى في عناده وتعصبه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾»[1].

ويقول الله تعالى حاكيًا عن المشركين استبعادهم وقوع البعث بعد الموت، وعدم إمكانه، وتعجبهم من شأنه وشأن القائل به: ﴿قٓ ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: ١ - ٣].

«قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي إنهم لم يستنكروا أصل الإرسال إليهم، وإنما أنكروا كون المرسل بشرًا مثلهم ينذرهم عذاب يوم القيامة وهم لا يؤمنون بالبعث الآخر فلذا قالوا ما أخبر تعالى به عنهم وقوله ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ أي بالبعث ﴿هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي أمر يدعو إلى التعجب إذ من مات وصار ترابا لا يعقل أن يبعث مرة أخرى فيسأل ويحاسب ويجزي وقد أفصحوا عن معتقدهم بقولهم ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ ذلك الرجوع إلى الحياة رجوع بعيد التحقيق»[2].

«الواقع أنهم يعبرون بذلك عن أنفسهم، ويستبعدون البعث ووقوعه ظنا منهم أن قدرة الله تشبه قدرتهم، فقاسوا قدرة الله على قدرتهم، وقياس الغائب على الشاهد باطل في نظر العقلاء، ولذلك صور الله عز وجل هذا الظن الخاطئ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

ولذا فقد استعظمت عقولهم هذا الأمر، وجعلته في حكم المستحيل، و إلا فلو نظروا بغير هذه النظرة القاصرة، وتأملوا في أنفسهم في مبدأ خلقهم، وفيما بين أيديهم من الآيات الدالة على القدرة الإلهية التي لا

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، ص٦٨.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري، ٥/ ١٣٧.

يعجزها شيء متى ما أرادته لما صدر منهم هذا القول المنكر»[1].

وقد رد على قولهم ذلك بقوله سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: ٤ - ٥]

«ردٌّ لقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

فإن إحالتهم البعث ناشئةٌ عن عدة شبهٍ منها: أن تفرق أجزاء الأجساد في مناحي الأرض ومهاب الرياح لا تبقي أملًا في إمكان جمعها، إذ لا يحيط بها محيطٌ، وأنها لو علمت مواقعها لتعذر التقاطها وجمعها، ولو جمعت كيف تعود إلى صورها التي كانت مشكلةً بها، وأنها لو عادت كيف تعود إليها، فاقتصر في إقلاع شبههم على إقلاع أصلها وهو عدم العلم بمواقع تلك الأجزاء وذراتها.. والمعنى: أن جمع أجزاء الأجسام ممكنٌ لا يعزب عن علم الله، وإذا كان عالمًا بتلك الأجزاء كما هو مقتضى عموم العلم الإلهي وكان قد أراد إحياء أصحابها كما أخبر به، فلا يعظم على قدرته جمعها وتركيبها أجسامًا كأجسام أصحابها حين فارقوا الحياة»[2].

وهذا من الإعجاز فقد رد على تلك الشبه المتعددة والاحتمالات الكثيرة برد موجز مفحم، فالذي خلقها عالم بمحل كل جزء منها بعد تفرقها، لا يعزب عنه منها شيء، وهو قادر على إعادة تركيبها كما كانت، كما ابتدأ خلقها أول مرة.

«فقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ إيماءٌ إلى دليل الإمكان، لأن مرجعه إلى عموم العلم كما قلنا، فأساس مبنى الرد هو عموم علم الله تعالى، لأن يجمع إبطال الاحتمالات التي تنشأ عن شبهتهم، فلو قال: نحن قادرون على إرجاع ما تنقص الأرض منهم لخطر في وساوس نفوسهم شبهة أن الله وإن سلمنا أنه قادرٌ فإن أجزاء الأجساد إذا تفرقت لا يعلمها الله حتى تتسلط على جمعها قدرته، فكان البناء على عموم العلم أقطع لاحتمالاتهم، واعلم أن هذا الكلام بيانٌ للإمكان رعيًا لما تضمنه كلامهم من الإحالة، لأن ثبوت الإمكان يقلع اعتقاد الاستحالة من نفوسهم، وهو كافٍ لإبطال تكذيبهم، ولاستدعائهم للنظر في الدعوة، ثم يبقى النظر في كيفية الإعادة، وهي أمرٌ لم نكلف بالبحث عنه»[3].

«وبعد أن بين الله لهم شمول علمه، وإحاطته بالجزئيات والكليات -إذ إن العالم بجزئيات الأشياء لا تخفى عليه كلياتها- بين لهم سبب اضطرابهم في أمر البعث وأنه

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، ص٦٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٢٨٠-٢٨١

(٣) المصدر السابق.

تكذيبهم للحق الذي جاءهم من خالقهم، إذ الإخبار عنه حق، والمخبر به صادق، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي مضطرب غير مستقر»[1].

٢. شبهة عدم عودة الموتى إلى الحياة والرد عليها.

كان من بين الشبه التي أثارها المشركون على إنكارهم للبعث ما حكاه القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٣٨-٤٠].

وهذا «انتقالٌ لحكاية مقالةٍ أخرى من شنيع مقالاتهم في كفرهم، واستدلالٌ من أدلة تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخبر به إظهارًا لدعوته في مظهر المحال، وذلك إنكارهم الحياة الثانية والبعث بعد الموت»[2].

«قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ معناه أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن الشيء إذا فني وصار عدمًا محضًا ونفيًا صرفًا، فإنه بعد هذا العدم الصرف لا يعود بعينه بل العائد يكون شيئًا آخر غيره. وهذا القسم واليمين إشارةٌ إلى أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن عوده بعينه بعد عدمه محالٌ في بديهة العقل: وأقسموا بالله جهد أيمانهم على أنهم يجحدون في قلوبهم وعقولهم هذا العلم الضروري»[3].

وقال الألوسي: «وهو مبني على أن الميت يعدم ويفنى وأن البعث إعادة له وأنه يستحيل إعادة المعدوم، وقد ذهب إلى هذه الاستحالة الفلاسفة ولم يوافقهم في دعوى ذلك أحد من المتكلمين إلا الكرامية وأبو الحسين البصري من المعتزلة، واحتجوا عليها بما رده المحققون، وبعضهم ادعى الضرورة في ذلك وأن ما يذكر في بيانه تنبيهات عليه»[4].

وتقرير هذه الشبهة كما قال الرازي: «أن الإنسان ليس إلا هذه البينة المخصوصة، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبطل ذلك المزاج والاعتدال امتنع عوده بعينه، لأن الشيء إذا عدم فقد فني ولم يبق له ذاتٌ ولا حقيقةٌ بعد فنائه وعدمه، فالذي يعود يجب أن يكون شيئًا مغايرًا للأول فلا يكون عينه»[5].

«فقال تعالى مكذبا لهم وردا عليهم:

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، ص٧١.
(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٥٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٠٦، ٢٠٧.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٧/ ٣٨٠.
(٥) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢٠٦.

﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لابد منه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر.

ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء، و﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أي: في أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت»[(١)].

قال الرازي: «ثم إنه تعالى بين أن القول بالبعث ممكنٌ ويدل عليه وجهان:

الوجه الأول: أنه وعدٌ حقٌّ على الله تعالى، فوجب تحقيقه، ثم بين السبب الذي لأجله كان وعدًا حقًا على الله تعالى، وهو التمييز بين المطيع وبين العاصي، وبين المحق والمبطل، وبين الظالم والمظلوم، وهو قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

والوجه الثاني: في بيان إمكان الحشر والنشر أن كونه تعالى موجدًا للأشياء ومكونًا لها لا يتوقف على سبق مادةٍ ولا مدةٍ ولا آلةٍ، وهو تعالى إنما يكونها بمحض قدرته ومشيئته، وليس لقدرته دافعٌ ولا لمشيئته مانعٌ فعبر تعالى عن هذا النفاذ الخالي عن المعارض بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وإذا كان كذلك، فكما أنه تعالى قدر على الإيجاد في الابتداء وجب أن يكون قادرًا عليه في الإعادة، فثبت بهذين الدليلين القاطعين أن القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة حق وصدق»[(٢)].

وقد ذكر الله تعالى قولهم باستحالة البعث بعد الموت في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٣].

قال محمد الأمين الشنقيطي: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن الكفار المنكرين للبعث قالوا: إنهم وعدوا بالبعث، ووعد به آباؤهم من قبلهم، والظاهر أنهم يعنون أجدادهم، الذين جاءتهم الرسل، وأخبرتهم بأنهم يبعثون بعد الموت للحساب والجزاء، وقالوا: إن البعث الذي وعدوا به هم وآباؤهم كذبٌ لا حقيقة له، وأنه ما هو ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما سطروه وكتبوه من الأباطيل والترهات، والأساطير: جمع أسطورةٍ، وقيل: جمع أسطارةٍ، وهذا الذي ذكره عنهم من إنكارهم البعث ذكر

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٧١.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢٠٧.

مثله في سورة النمل في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل: ٦٧-٦٨].

ثم إنه تعالى أقام البرهان على البعث، الذي أنكروه في هذه الآية بقوله: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]؛ لأن من له الأرض، ومن فيها، ومن هو رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، ومن بيده ملكوت كل شيءٍ، وهو يجير ولا يجار عليه، لا شك أنه قادرٌ على بعث الناس بعد الموت»[(١)].

قال ابن عاشور: «فالمقصود منه حكاية دعوى البعث بأن الرسول الذي يدعيها بتحقيقٍ وتوكيدٍ مع كونها شديدة الاستحالة، ففي حكاية توكيد مدعيها زيادةٌ في تفظيع الدعوى في وهمهم، وجملة لقد وعدنا إلخ تعليلٌ للإنكار وتقويةٌ له. وقد جعلوا مستند تكذيبهم بالبعث أنه تكرر الوعد به في أزمانٍ متعددةٍ فلم يقع ولم يبعث واحدٌ من آبائهم، ووجه ذكر الآباء دفع ما عسى أن يقول لهم قائلٌ: إنكم تبعثون قبل أن تصيروا ترابًا وعظامًا، فأعدوا الجواب بأن الوعد بالبعث لم يكن مقتصرًا عليهم فيقعوا في شكٍ باحتمال وقوعه بهم بعد موتهم وقبل فناء أجسامهم بل ذلك وعدٌ قديمٌ وعد به آباؤهم الأولون وقد مضت أزمانٌ وشوهدت رفاتهم في أجداثهم وما بعث أحدٌ منهم، وجملة ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من القول الأول، وهي مستأنفة استئنافا بيانا لجواب سؤالٍ يثيره قولهم ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ وهو أن يقول سائلٌ: فكيف تمالأ على هذه الدعوى العدد من الدعاة في عصورٍ مختلفةٍ مع تحققهم عدم وقوعه؟ فيجيبون بأن هذا الشيء تلقفوه عن بعض الأولين فتناقلوه»[(٢)].

وقد أفحمهم القرآن بالجواب، قال الخازن: «قوله تعالى: ﴿قُل﴾ أي يا محمد لأهل مكة ﴿لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ من الخلق ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي خالقها ومالكها؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي لا بد لهم من ذلك لأنهم يقرون أنها مخلوقة لله ﴿قُلْ﴾ أي قل لهم يا محمد إذا أقروا بذلك ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فتعلموا أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت»[(٣)].

وقد عرض القرآن مقالتهم بإنكار البعث، وادعاءهم استمرار الحياة الدنيا، وقدم العالم، وأنها ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، وأنهم لا حجة لهم في مواجهة الآيات

(١) أضواء البيان، ٥/ ٣٤٨، ٣٨٥.

(٢) التحرير والتنوير، ١٨/ ١٠٧.

(٣) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٧٥.

واضحة الدلالة على أمر البعث بعد الموت إلا طلبهم بأسلوب يملؤه الصلف والتحدي والعناد بعث آبائهم الأولين في هذه الحياة الدنيا.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: ٢٤- ٢٥].

«أي وقال منكرو البعث والجزاء يوم القيامة ما هناك إلا حياتنا هذه التي نحياها وليس وراءها حياة أخرى، إننا نموت ونحيا أي نموت نحن الأحياء ويحيى أبناؤنا من بعدنا، وهكذا تستمر الحياة أبدًا يموت الكبار ويحيى الصغار، وما يهلكنا إلا الدهر أي وما يميتنا ويفنينا إلا مرور الزمان وطول الأعمار، وهو إلحاد كامل وإنكار للخالق عز وجل، وهو تناقض منهم لأنهم إذا سئلوا من خلقهم يقولون الله، فينسبون إليه الخلق، وهو أصعب ولا ينسبون إليه الإماتة وهي أهون من الخلق، فرد تعالى عليهم مذهبهم «الدهري» بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ليس لهم على معتقدهم هذا أدنى علم نقليًا كان ولا عقليًا، أي يتلقوه عن وحي أوحاه الله إلى من شاء من عباده، ولا عن عقل سليم راجح لا ينقض حكمه، كالواحد مع الواحد اثنان، والأبيض خلاف الأسود، وما إلى ذلك من القضايا العقلية التي لا ترد، فهؤلاء الدهريون ليس لهم شيء من ذلك، ما لهم إلا الظن والخرص، وقضايا العقيدة لا تكون بالظن، والظن أكذب الحديث»[1].

«﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي بأن الله باعث خلقه يوم القيامة ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين أي انشروهم أحياء، حتى نصدق ببعثنا أحياء بعد مماتنا، وإطلاق الحجة على ذلك، إما حقيقة بناء على زعمهم، فإنهم ساقوه مساق الحجة، أو هو مجاز تهكما بهم. كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. بمعنى أن لا حجة لهم البتة، وفيه مبالغة لتنزيل التضاد منزلة التجانس»[2].

قال الرازي: «واعلم أن هذه الشبهة ضعيفةٌ جدًا، لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول، فإن حصول كل واحدٍ منا كان معدومًا من الأزل إلى الوقت الذي حصلنا فيه، ولو كان عدم الحصول في وقتٍ معينٍ يدل على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك، وذلك باطلٌ بالاتفاق[3].

وقد رد عليهم القرآن العظيم بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٣٧.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٤٣٣
(٣) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٦٧٩

يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٦]

«﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم على ما دل عليه الحجج لا الدهر كما تزعمون ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي فيه وجوز كون الفعل مضمنا معنى مبعوثين أو منتهين ونحوه ومعنى في أظهر أي يجمعكم في يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في جمعكم فإن من قدر على البدء وقدر على الإعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة في ذلك اليوم والوعد الصدق بالآيات دل على قرعها، وحاصله أن البعث أمر ممكن أخبر به الصادق وتقتضيه الحكمة وكل ما هو كذلك لا محالة واقع والإتيان بالآباء حيث كان منافيا للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك من قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقا للحق وتنبيها على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكر لا لأن فيه شائبة ريب ما»[1].

٣. استمراء الملذات في الحياة الدنيا وعدم الرغبة في التذكير بمفارقتها.

ومن أسباب رفض أولئك المنكرين للبعث وبذل كل جهد في إنكاره أنهم ألفوا شهوات الحياة الدنيا؛ فهم يخشون تبعات الإيمان بالبعث، والانقياد للدين الذي يحجزهم عن شهواتهم، ويحول دونهم ودون أهوائهم، وقد سجل القرآن ذلك وبين سوء حالهم ومآلهم في قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧ - ٨].

قال ابن عاشور: «هذا استئناف وعيدٍ للذين لم يؤمنوا بالبعث ولا فكروا في الحياة الآخرة ولم ينظروا في الآيات نشأ عن الاستدلال على ما كفروا به من ذلك جمعًا بين الاستدلال المناسب لأهل العقول وبين الوعيد المناسب للمعرضين عن الحق إشارةً إلى أن هؤلاء لا تنفعهم الأدلة وإنما ينتفع بها الذين يعلمون ويتقون وأما هؤلاء فهم سادرون في غلوائهم حتى يلاقوا العذاب، وإذ قد تقرر الرجوع إليه للجزاء تأتى الوعيد لمنكري البعث الذين لا يرجون لقاء ربهم والمصير إليه»[2].

«﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بيانٌ لمآل أمر من كفر بالبعث وأعرض عن البينات الدالة عليه بعد تحقيق أن مرجع الكل إليه تعالى، وأنه يعيدهم بعد بدئهم للجزاء ثوابًا وعقابًا، وتفصيل بعض الآيات

(١) روح المعاني، الألوسي، ١٣/ ١٥٢.

(٢) التحرير والتنوير، ١١/ ٩٨.

الشاهدة بذلك، والمراد بلقائه إما الرجوع إليه تعالى بالبعث، أو لقاء الحساب، كما في قوله عز وعلا ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]»[١].

«وفي الآية إشارةٌ إلى أن البهجة بالحياة الدنيا والرضى بها يكون مقدار التوغل فيهما بمقدار ما يصرف عن الاستعداد إلى الحياة الآخرة. وليس ذلك بمقتضى الإعراض عن الحياة الدنيا فإن الله أنعم على عباده بنعمٍ كثيرةٍ فيها وجب الاعتراف بفضله بها وشكره عليها والتعرف بها إلى مراتب أعلى هي مراتب حياةٍ أخرى والتزود لها. وفي ذلك مقاماتٌ ودرجاتٌ بمقدار ما تهيأت له النفوس العالية من لذات الكمالات الروحية، وأعلاها مقام قول النبيء صلى الله عليه وسلم (فقلت ما لي وللدنيا)[٢]»[٣].

«قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر»[٤].

وقد ضرب الله المثل بهذا الكافر صاحب الجنتين الذي اغتر بجنتيه وما كان من صنوف النعم فيهما فقال ما حكاه القرآن: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٥ - ٣٦].

«يقول تعالى ذكره: هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ وهي بستانه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وظلمه نفسه: كفره بالبعث، وشكه في قيام الساعة، ونسيانه المعاد إلى الله تعالى، فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه»[٥].

«ثم حكى تعالى عن الكافر أنه قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فجمع بين هذين، فالأول قطعه بأن تلك الأشياء لا تهلك ولا تبيد هذه أبدًا مع أنها متغيرةٌ متبدلةٌ، فإن قيل: هب أنه شك في القيامة فكيف قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ مع أن الحدس يدل على أن أحوال الدنيا بأسرها ذاهبةٌ باطلةٌ غير باقيةٍ؟ قلنا: المراد أنها لا تبيد مدة حياته ووجوده»[٦].

قال ابن عطية: «و«ظلمه لنفسه»: كفره وعقائده الفاسدة في الشك في البعث، فقد

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ١٢٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة باب هدية ما يكره لبسه، رقم ٢٤٧١ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٩٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٤٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٢.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٣.

نص على ذلك قتادة وابن زيد، وفي شكه في حديث العالم إن كانت إشارته بهذه إلى الهيئة من السماوات والأرض وأنواع المخلوقات، وإن كانت إشارته إلى جنته فقط، فإنما في الكلام تساخف واغترار مفرط وقلة تحصيل، وكأنه من شدة العجب بل والسرور أفرط في وصفها بهذا القول ثم قاس أيضا الآخرة على الدنيا، وظن أنه لم يمل له في دنياه إلا لكرامة يستوجبها في نفسه، قال: فإن كان ثم رجوع كما يزعم فستكون حالي كذا وكذا»[1].

قال الطبري: «وقوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ يقول جل ثناؤه: قال لما عاين جنته، ورآها وما فيها من الأشجار والثمار والزروع والأنهار المطردة شكا في المعاد إلى الله: ما أظن أن تبيد هذه الجنة أبدا، ولا تفنى ولا تخرب، وما أظن الساعة التي وعد الله خلقه الحشر فيها تقوم فتحدث، ثم تمنى أمنية أخرى على شك منه، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ فرجعت إليه، وهو غير موقن أنه راجع إليه ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ يقول: لأجدن خيرا من جنتي هذه عند الله إن رددت إليه مرجعا ومردًا، يقول: لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلا ولي عنده أفضل منها في المعاد إن رددت إليه»[2].

قال الرازي: «ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

والسبب في وقوع هذه الشبهة: أنه تعالى لما أعطاه المال في الدنيا ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقًا له، والاستحقاق باقٍ بعد الموت فوجب حصول العطاء، والمقدمة الأولى كاذبةٌ فإن فتح باب الدنيا على الإنسان يكون في أكثر الأمر للاستدراج والتملية، والمقصود عود الكناية إلى الجنتين، والباقون منها، والمقصود عود الكناية إلى الجنة التي دخلها»[3].

وفي قوله هذا ذكر السعدي احتمالين ثم رجح أحدهما على الآخر فقال: «وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالما بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظا من العقل، فأي: تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب، أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة

(١) المحرر الوجيز، ٣/ ٥١٧
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٢٢.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢١/ ٤٦٣- ٤٦٤.

نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام، على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ فإثبات أن وصفه الظلم، في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده»[1].

٤. الهروب من تصور الحساب والعذاب.

من الدوافع التي تكمن وراء إنكار هؤلاء المكذبين بالبعث ذلك الخوف الكامن من تصور أنهم بعد البعث محاسبون ومجازون بأعمالهم التي عملوها في حياتهم الدنيا، فكلما تصوروا ذلك الأمر رفضوا تصديقه واستبعدوه حذرا من وقوعه بالفعل فهم لا يتصورون أن يحاسبوا على ما جنوه من الجرائم والشنائع التي يخشون مغبة الحساب عليها والمعاقبة بها، لذا فهم يعبرون عن إنكارهم للبعث باستبعادهم للحساب والجزاء في الآخرة، وقد عبر القرآن عن ذلك من خلال ذلك المشهد الأخروي الذي يجري لأهل الجنة وهم يتذاكرون بعض ما كان في الدنيا من حوار بين بعضهم وبين مكذبي البعث.

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: ٥٠ - ٥٣].

«والمعنى: أهل الجنة يسأل بعضهم بعضًا عن حاله في الدنيا، قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي في الدنيا ينكر البعث، و﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي كان يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجبًا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي لمحاسبون ومجازون، والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار»[2].

«والمدين: المجازى يقال: دانه يدينه، إذا جازاه، والأكثر استعماله في الجزاء على السوء، والدين: الجزاء كما في سورة الفاتحة»[3].

ومما يدل على ذلك قوله تعالى في سبب إنكار منكر البعث: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ [القيامة: ٥ - ٦].

«وقوله ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي ما يجهل الإنسان قدرة خالقه على إعادة خلقه، ولكنه يريد أن يواصل فجوره مستقبله كله فلا يتوب من ذنوبه ولا يؤوب من معاصيه لأن شهواته مستحكمة فيه.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ يخبر تعالى عن المنكر للبعث من أجل مواصلة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٧٧.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٣٠٥.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٣/ ١١٦.

الفجور من زنا وشرب خمور بأنه يقول أيان يوم القيامة استبعادا واستنكارا»[1].

وقال ابن الجوزي: «قوله عز وجل: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يكذب بما أمامه من البعث والحساب، قاله ابن عباس.

والثاني: يقدم الذنب ويؤخر التوبة، ويقول: سوف أتوب، قاله سعيد بن جبير. فعلى هذا: يكون المراد بالإنسان: المسلم. وعلى الأول: الكافر.

وقوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ أي: متى هو؟ تكذيبًا به، وهذا هو الكافر»[2].

وذكر ابن كثير أن ابن زيد رجح القول الأول فقال: «وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب. وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد؛ ولهذا قال بعده ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾؟ أي: يقول متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده»[3].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ قال بعض المتأولين: الضمير في أمامه عائد على الإنسان، ومعنى الآية أن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبدا قدما راكب رأسه ومطيع أمله ومسوفا بتوبته، قاله مجاهد والحسن وعكرمة وابن جبير والضحاك والسدي.

وقال السدي: المعنى ليظلم على قدر طاقته.

وقال الضحاك: المعنى يركب رأسه في طلب الدنيا دائمًا.

وقوله تعالى: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ تقديره لكن يفجر، وقال ابن عباس ما يقتضي أن الضمير في أمامه عائد على يوم القيامة، والمعنى أن الإنسان هو في زمن وجوده أمام يوم القيامة وبين يديه، ويوم القيامة خلفه فهو يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة، وهو لا يعرف قدر الضرر الذي هو فيه»[4].

قال الألوسي: «وفيهما إيماء إلى أن ذلك الإنسان عالم بوقوع الحشر ولكنه متغاب، واعتبر الدوام في ﴿لِيَفْجُرَ﴾ لأنه خبر عن حال الفاجر بأنه يريد ليفجر في المستقبل على أن حسبانه وإرادته هما عين الفجور، وقيل لأن ﴿أَمَامَهُ﴾ ظرف مكان استعير هنا للزمان المستقبل فيفيد الاستمرار، وفي إعادة المظهر ثانيًا ما لا يخفى من التهديد والنعي على قبيح ما ارتكبه، وأن الإنسانية تأبى هذا الحسبان والإرادة وعود ضمير أمامه على هذا المظهر هو الأظهر»[5].

(١) أيسر التفاسير، الجزائري، ٥/ ٤٧٥.
(٢) زاد المسير ٤/ ٣٦٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٧٦، ٢٧٧.
(٤) المحرر الوجيز، ٥/ ٤٠٢-٤٠٣.
(٥) روح المعاني، ١٥/ ١٥٣.

آثار الإيمان بالبعث

هناك ثمرات وآثار تظهر على المؤمن بالبعث قولًا وفعلًا وحالًا وسلوكًا، منها ما يكون في الدنيا، ومنها ما يكون في الآخرة.

أولًا: في الحياة الدنيا:

للإيمان بالبعث آثار على حياة المؤمن في الحياة الدنيا، ومن هذه الآثار:

١. عدم الركون إلى الدنيا وملذاتها.

من ثمار الإيمان بالبعث بعد الموت الإقبال على الله وعلى الدار الآخرة، والإعراض عن الدنيا وزينتها وشهواتها، والتخفف منها، والقناعة باليسير من متاعها في حدود ما أحل الله، فتجد المؤمن الحق يعلم أنها ظل زائل وعرض حائل، فلا ينغمس في شهواتها، ولا يركن إليها، وهؤلاء هم الفائزون يوم القيامة بالنعيم المقيم مصداقا لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: تلك الدار الآخرة نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرا عن الحق في الأرض وتجبرا عنه ولا فسادا. يقول: ولا ظلم الناس بغير حق، وعملا بمعاصي الله فيها»(١).

وقال القرطبي: «قال أبو معاوية: الذي لا يريد علوًا هو من لم يجزع من ذلها. ولم ينافس في عزها، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعًا، وأعزهم غدًا ألزمهم لذلِ اليوم. وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالدٍ قال: مر علي بن الحسين وهو راكبٌ على مساكين يأكلون كسرًا لهم، فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[القصص: ٨٣].

ثم نزل وأكل معهم، ثم قال: قد أجبتكم فأجيبوني. فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم. خرجه أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبلٍ، قال حدثني أبي، قال حدثنا سفيان بن عيينة. فذكره. وقيل: لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب. والمراد إنما ينتفع بتلك الدار من اتقى، ومن لم يتق فتلك الدار عليه لا له، لأنها تضره ولا تنفعه»(٢).

وذلك لأنهم يخافون من مغبة يوم البعث وأهواله ويعدون له ويتخففون من شهوات الدنيا لما يجدونه في أنفسهم من الخوف من هذا اليوم واليقين بوقوعه.

وقال تعالى: «﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا

(١) جامع البيان، ١٩/ ٦٣٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٢٠.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٧ - ١٨].

قال الألوسي: «﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجال إنكار واستهزاء، كانوا يقولون: متى هي ليتها قامت حتى يظهر لنا أهو الذي نحن عليه أم كالذي عليه محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون منها مع اعتناء بها فإن الإشفاق عناية مختلطة بخوف، فإذا عدي بمن كما هنا، فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بعلى فمعني العناية أظهر، وعنايتهم بها لتوقع الثواب، وزعم الجلبي أن الآية من الاحتباك والأصل يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون بها، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الأمر المتحقق الكائن لا محالة»[(١)].

وقال السعدي: «﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ عنادا وتكذيبا، وتعجيزا لربهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون، لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لمعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه»[(٢)].

٢. السعي الحثيث للأخرى.

فإن الإيمان بالبعث من أكبر الدواعي والدوافع للمرء على السعي الحثيث نحو الآخرة بكثرة العمل الصالح والاستعداد لها بالمسارعة في الخيرات.

قال تعالى: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

قال الطبري: «﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يقول: خائفة من أنهم إلى ربهم راجعون، فلا ينجيهم ما فعلوا من ذلك من عذاب الله، فهم خائفون من المرجع إلى الله.. وقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه الصفات صفاتهم، يبادرون في الأعمال الصالحة، ويطلبون الزلفة عند الله بطاعته»[(٣)].

وقال الخازن: «قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، وعن عائشة قالت: (قلت يا رسول الله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال لا

(١) روح المعاني ١٣/ ٢٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٥٦.

(٣) جامع البيان، ١٩/ ٤٤- ٤٥.

يا بنت الصديق ولكن هم الذين يصومون ويتصدقون ويخافون أن لا يقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات)[1]، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي يبادرون إلى الأعمال الصالحة ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي إليها، وقال ابن عباس: سبقت لهم من الله السعادة، وقيل: سبقوا الأمم إلى الخيرات»[2].

وقال ابن عاشور: «ومعنى وهم لها سابقون أنهم يتنافسون في الإكثار من أعمال الخير، فالسبق تمثيلٌ للتنافس والتفاوت في الإكثار من الخيرات بحال السابق إلى الغاية، أو المعنى وهم محرزون لما حرصوا عليهم، فالسبق مجازٌ لإحراز المطلوب لأن الإحراز من لوازم السبق»[3].

٣. محاسبة النفس.

إن من أيقن بالبعث بعد الموت وما يقع له بعده من الحساب والثواب أو العقاب جدير به أن يحاسب نفسه قبل المثول بين يدي ربه للحساب وأن يلوم نفسه على التقصير والتفريط فيكون ذلك دافعا له إلى التوبة من ذنوبه وغدراته وغفلاته، فيحسن عمله ويتقي ربه في كل حركاته وسكناته، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر: ١٨].

قال أبو السعود: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي في كل ما تأتون وما تذرون ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: أي شئ قدمت من الأعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة غده وتنكيره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل لغدٍ لا يعرف كنهه لغاية عظمه وأما تنكير نفسٍ فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن لذلك اليوم الهائل كأنه قيل ولتنظر نفسٌ واحدةٌ ذلك ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تكريرٌ للتأكيد أو الأول في أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل وهذا في ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي من المعاصي»[4].

وقال السعدي: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرا وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة المؤمنون، رقم ٣١٧٥.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٣٠٤، رقم ١٦٢.
(٢) لباب التأويل، ٣/ ٢٧٣.
(٣) التحرير والتنوير، ١٨/ ٧٨
(٤) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٣٢.

كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضا، أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد، وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة»[1].

ثانيًا: في الآخرة:

أما في الآخرة فإن ثمار الإيمان باليوم الآخر والبعث بعد الموت أحلى وأفضل وهي كثيرة منها:

١. الحساب اليسير.

فإن من آمن باليوم الآخر وما فيه من بعث الأجساد من أجداثها وأعد له عدته فإن الله ييمن كتابه وييسر حسابه يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ [الانشقاق: ٦- ٩].

«قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي يا ابن آدم ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي أنك عامل تعمل يوميا ليل ونهار إلى أن تموت وتلقى ربك إنك لا تبرح تعمل لا محالة وتكسب بجوارحك الخير والشر إلى الموت حيث تنتقل إلى الدار الآخرة وتلقى ربك وتلاقيه هذا يشهد له قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح (كلكم يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها)[2] إذا فمن الخير لك أيها الإنسان المكلف أن تعمل خيرًا تلاقي به ربك فيرضى عنك به ويكرمك إنك حقا ملاق ربك بعملك فأنصح لك أن يكون عملك صالحا وانظر إلى الصورة التالية ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ لأنه حوى الخير ولا شر فيه ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ينظر في كتابه ويقرر هل فعلت كذا فيعترف ويتجاوز عنه وينقلب إلى أهله في الجنة وهم الحور العين والنساء المؤمنات والذرية الصالحة يجمعهم الله ببعضهم كرامة لهم»[3].

٢. ثقل الموازين.

فإن من آمنوا بالبعث بعد الموت يثقل الله

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٨٥٣

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٥٥٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «كل الناس يغدو».

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٥٤٣

موازينهم يوم القيامة، وينجيهم من العذاب، ويكرمهم بدخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأعراف: ٨].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «والوزن في ذلك اليوم الذي يسأل الله فيه الرسل والأمم، ويقص عليهم كل ما كان منهم، هو الحق الذي تحق به الأمور وتعرف به حقيقة كل أحدٍ وما يستحقه من الثواب والعقاب.. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قيل: إن الموازين جمع ميزانٍ فهي متعددةٌ لكل امرئٍ ميزانٌ وقيل: لكل عملٍ. والجمهور على أن الميزان واحدٌ وأنه يجمع باعتبار المحاسبين وهم الناس أو على حد قول العرب: سافر فلانٌ على البغال وإن ركب بغلًا واحدًا، وقيل: إن الموازين جمع موزونٍ، والمعنى فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة حسناته فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب والنعيم في دار الثواب»[(١)].

وقال القاسمي: «والوزن يومئذٍ الحق أي: وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها، يوم يسأل الله الأمم ورسلهم، العدل. فمن ثقلت موازينه أي: حسناته في الميزان فأولئك هم المفلحون أي: الناجون من السخط والعذاب»[(٢)].

٣. جنات الخلد.

فإن المؤمنين بالبعث بعد الموت هم الفائزون بجنات الخلد يوم القيامة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٣ - ٥].

«حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر. إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله. فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله. فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه. بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم. وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله، ويدخل في الإيمان بالغيب، الإيمان بجميع ما أخبر الله

(١) تفسير المنار، ٨/ ٢٨٣.

(٢) محاسن التأويل ٥/ ٦.

به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها»[1].

«وأما معنى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد، بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم.. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي أولئك هم المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله تعالى ذكره بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله، من الفوز بالثواب، والخلود في الجنان، والنجاة مما أعد الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب»[2].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: ٩ - ١٠].

قال الماوردي: «قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: يجعل لهم نورًا يمشون به، قاله مجاهد.

الثاني: يجعل عملهم هاديًا لهم إلى الجنة، وهذا معنى قول ابن جريج.

الثالث: أن الله يهديهم إلى طريق الجنة.

الرابع: أنه وصفهم بالهداية على طريق المدح لهم. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: من تحت منازلهم، قاله أبو مالك.

الثاني: تجري بين أيديهم وهم يرونها من علو، لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]. يعني بين يدي، وحكى أبو عبيدة عن مسروق أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود»[3].

قال الشوكاني: «قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ أي: دعاؤهم ونداؤهم، وقيل: الدعاء العبادة، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

وقيل معنى دعواهم هنا: الادعاء الكائن بين المتخاصمين، والمعنى: أن أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعايب والإقرار له بالإلهية. قال القفال: أصله من الدعاء، لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما، وقيل معناه: طريقتهم وسيرتهم، وذلك أن المدعي للشيء مواظبٌ عليه فيمكن أن تجعل الدعوى كنايةً عن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٠.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١/ ٢٤٩.
(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٢٣.

الملازمة وإن لم يكن في قوله ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ دعوى ولا دعاءٌ وقيل معناه: تمنيهم كقوله: ولهم ما يدعون وكأن تمنيهم في الجنة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه، وهو مبتدأٌ وخبره ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، و﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة. والمعنى على القول الأول: أن دعاءهم الذي يدعون به في الجنة هو تسبيح الله وتقديسه. والمعنى: نسبحك يا الله تسبيحًا، قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: تحية بعضهم للبعض، فيكون المصدر مضافًا إلى الفاعل، أو تحية الله، أو الملائكة لهم، فيكون من إضافة المصدر إلى المفعول.. قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[1].

وقال السعدي: «يقول تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم.

ولهذا قال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائض، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألذ عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة.

وأما تحيتهم فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿سَلَٰمٌ﴾ وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ﴾

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٨٦.

إلى آخر الآية: إن أهل الجنة -إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما- قالوا سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال، فإذا فرغوا قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[1].

موضوعات ذات صلة:
الثواب، الجزاء، الجنة، الحساب، العذاب، الموت، النار، اليوم الآخر

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٥٨.